الفصل السادس :

عوائق التفاهم

كثيرة هي عوائق التفاهم بين المسلمين وغير المسلمين في بلاد الغرب ألمحتُ إلى بعض أسبابها وهي أسباب مشتركة بين كلا طرفي التعايش وما يهمني هو ما يتعلق بمسؤولية المسلم تجاه الواقع الذي يعايشه .

ليس من شك أن أي مهاجر يمثل قومه ودينه ـ أياً كانت هويته وعقيدته ـ في بلاد المهجر ومن ثم فإن الخطأ الشخصي عند النقد والحكم يتجاوز شخصية فاعله وتصرفاته الذاتية ليُحاكَم جنسه ودينه ومن هنا تعظم المسؤولية ويزداد الوعي ، ولقد تحدثت مراراً في كثير من محاضراتي وخطبي ولقاءاتي الإعلامية بأن كل مسلم ينبغي أن يعلم بأنه عنوان دينه وسفير وطنه وممثل أمته ، ولذا أحب أن أركز على أهم عوامل فقد الثقة وهي :

غياب القدوة الصالحة :

إن المقياس الحقيقي الذي يقاس به الإنسان ويوزن به هو مدى تطبيقه لما ينادي به ويدعيه من مبادئ ومثل ومكارم أخلاق ، فإذا جانب فعلُه قولَه وتعارض سلوكه مع منهجه وفكره سقطت معاني القيم وهوت من صرحها العالي عند أقدام شهواته ورغباته ، ويعظُم الأمر خطورة عندما تصدر تلك الممارسات من أهل الاقتداء ، فيسهل انتشارها ويعم ضررها ويصبح الكثيرون على استعداد لولوج أي طريق غير مبالين بقبحها أو حُسْنها في سبيل تحقيق ما يأملون أو الوصول إلى ما يرغبون ، وينشأ فريق آخر ساخط على ما يراه من منكرات أو فساد فيصبح حانقاً

غاضباً وعندئذ يسهل توجيهه وغرس الأفكار في عقله وشحن الأحقاد والكراهية في صدره ، وتبرر له الوسائل من أجل الوصول إلى الغايات .

الكذب :

إذا أراد الداعية أن يصد عن سبيل دعوته فعليه بالكذب وعدم الصدق فهذا أقصر طريق للإعراض عنه ، فلو أُثِر عنه الكذب مرة واحدة فقد أتى على بنيان الثقة من أساسه ، ولهذا نجد أن النبيﷺ قبل أن يبدأ في تبليغ دعوته أو يعلم برسالته انتزع منهم شهادة له بأنه الصادق الأمين ، عرف به قبل البعثة فصار لقباً له الصادق الأمين وقبل أن يدعوهم يقف على جبل مكة فينادي فيهم أجمعين وبعد أن يأتوا إليه مجتمعين سألهم « لو كنت مخبركم أن خلف هذا الوادي خيلاً أكنتم مصدقي ؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك كذباً قط . فقال عندئذ : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ».

تكرار الأخطاء :

إن تكرار الخطأ يُفقد الثقة ويضعف القبول ويلقي بظلال من الشك والريبة على شخص من تكرر خطؤه ، فتكرر خطئه إما أن يكون من ضعف عقله أو عدم إدراكه ووعيه أو عدم دراسة وتأنٍّ ومهل بل خفة وعجلة وكلها حواجز تحول دون الإقناع ، ولهذا جاء حديث النبيﷺ : « لا يلدغ المؤمن من جُحْر مرتين » رواه البخاري ومسلم .

تبرير الخطأ :

ليس للعدالة وجوه متعددة وإنما هو وجه واحد ، ليس لها مكاييل وموازين متفاوتة بل هو ميزان واحد هي في حكمها وقضائها كالنور لا يتأثر ببرد أو بحر هي في عمومها وشمولها كالهواء الذي تتقاسمه جميع المخلوقات كل يتنفسه بقدر دون زيادة أو نقص ودون فصل أو حصر ، هذا ما ينبغي علمه لمن تقلد حكماً أو تولى قضاءً، وما أشبه الداعي إلى الخير والعدل وهو ظالم بمن أراد أن يوقظ غيره وهو

نائم، فأنّى له أن يقيم حقاً أو أن يثبت صدقاً، ومن هنا كانت مكانة العدل في جميع الأديان وصية به وأمراً بملازمته حتى مع المخالفين المبغَضين.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء١٣٥] وكما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة٨].

ولنا في قصة السرية التي أرسلها النبي ﷺ وأمَّر عليهم عبد الله بن جحش وأعطاه كتاباً وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ففعل عبد الله بن جحش ما أمره به فلما فتح الكتاب وقرأه وجد فيه «إذا نظرتَ في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم» فلما قرأ الكتاب قال: سمعاً وطاعة ثم أخبر أصحابه بذلك وبأنه لا يستكره أحداً منهم، وأنه ناهض لوجهه بمن أطاعه، وأنه إن لم يُطعه أحد مضى وحده، فمن أحب الشهادة فلينهض، ومن كره الموت فليرجع فقالوا: كلنا نرغب فيما ترغب فيه وما من أحد إلا هو سامع مطيع لرسول الله ﷺ.

ونهضوا معه وسلك على الحجاز ونزلوا نخلة-اسم مكان- ومرت بهم عير لقريش تحمل زبيباً وتجارة فيها عمرو بن الحضرمي وعثمان بن عبد الله بن المغيرة وأخوه نوفل والحكم بن كيسان فتشاور المسلمون وقالوا: نحن في آخر يوم من رجب الحرام، فإن نحن قاتلناهم هتكنا حرمة الشهر الحرام وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم ثم اتفقوا على لقائهم، فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي وأنكر رسول الله ﷺ قتل ابن الحضرمي في الشهر الحرام، فسقط في أيدي القوم.

وينزل القرآن شاهد صدق وحاكم عدل ليقرر أن الخطأ خطأ وإن وقع من المسلمين ولكنه يعقد في نفس السياق مقارنة موضوعية عقلانية بين خطأ المسلمين وجُرْم المشركين وأن جريمة المشركين في الصد عن سبيل الله والكفر بالله رب العالمين وإخراج المسلمين من أرضهم وتعذيبهم ليرتدوا عن دينهم أعظم جرماً وأقبح فعلاً.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ [البقرة٢١٧] .

حدث آخر :

هذا يهودي يُتهم ظلماً بسرقة ، ومال المسلمون إلى إلصاق التهمة به وتبرئة السارق المسلم والدفاع عنه ، فينزل القرآن ناهياً المسلمين عن الدفاع عن المخطئ ولو كان مسلماً ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ [النساء١٠٧] .

الغش والغدر :

لقد حرم الإسلام الغدر على المسلم في كل علاقاته مع غيره مسلماً أو غير مسلم ، مسالماً أو محارباً ، روى البخاري ومسلم عن النبي ﷺ أنه قال : « يُرفع لكل غادر لواء تحت إسته يوم القيامة يُقال فيه : هذه غدرة فلان بن فلان » .

وهذا حديث هرقل أذكره بتمامه لعظيم فائدته ، لما كتب النبي ﷺ كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام ، طلب من كان هناك من العرب وكان أبو سفيان قد قدم في طائفة من قريش في تجارة إلى الشام وسألهم عن أحوال النبي ﷺ فسأل أبا سفيان ، وأمر الباقين إن كذب أن يُكذبوه فصاروا بسكوتهم موافقين له في الإخبار ، سألهم : هل كان في آبائه من ملك ؟ فقالوا : لا ، وسألهم : أهو ذو نسب فيكم ؟ فقالوا : نعم ، وسألهم : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فقالوا : لا ، ما جربنا عليه كذباً ، وسألهم : هل اتبعه ضعفاء الناس أم أشرافهم ، فذكروا أن الضعفاء اتبعوه ، وسألهم : هل يزيدون أم ينقصون ؟ فذكروا أنهم يزيدون ، وسألهم : هل يرجع أحد منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه ؟ فقالوا : لا وسألهم : هل قاتلتموه؟ قالوا : نعم ، وسألهم عن الحرب بينه وبينهم ؟ فقالوا : ندال عليه مرة ويدال علينا أخرى ، وسألهم : هل يغدر ؟ فذكروا أنه لا يغدر ، وسألهم : بماذا يأمركم ؟فقالوا : يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة .

وبعد هذه الأسئلة من ملك حكيم بأمور السياسة وأحوال الناس عليم بدأ يفسر ويبين ما في هذه الصفات من فوائد وأدلة ، فقال : سألتكم هل كان في آبائه من ملك فقلتم : لا ، قلت : لو كان في آبائه من ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتكم : هل قال هذا القول فيكم أحد قبله ؟ فقلتم : لا ، فقلت : لو قال هذا القول أحد قبله لقلت رجل ائتم بقول قيل قبله ، وسألتكم : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فقلتم : لا فقلت : قد علمت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب يكذب على الله ، وسألتكم : أضعفاء الناس يتبعونه أم أشرافهم ؟ فقلتم : ضعفاؤهم، وهم أتباع الرسل ، يعني في أول أمرهم ثم قال : وسألتكم أيزيدون أم ينقصون ؟ فقلتم : بل يزيدون ، وكذلك الإيمان حتى يتم ، وسألتكم : هل يرتد أحد منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه ؟ فقلتم : لا ، وكذلك الإيمان ، إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أبداً وسألتكم : كيف الحرب بينكم وبينه ؟ فقلتم : إنها دول ، وكذلك الرسل تبتلى وتكون العاقبة لها ، قال : وسألتكم هل يغدر ؟ فقلتم لا ، وكذلك الرسل لا تغدر قال : وسألتكم عما يأمر به فذكرتم أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف والصلة ، وينهاكم عما يعبد آباؤكم ، وهذه صفة نبي ، وقد كنت أعلم أن نبياً يبعث ، ولم أكن أظنه منكم ولوددت أني أخلص إليه ، ولولا ما أنا فيه من الملك لذهبت إليه ، وإن يكن ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين » . البخاري ومسلم

وتأتي القاعدة الأصولية (**الوسائل لها أحكام المقاصد**) لتأكيد تحريم الغدر والخداع. لقد ساهم بعض من المسلمين المقيمين في بلاد الغرب بقدر كبير في تشويه صورة المسلمين فأفتوا لأنفسهم – وهم ليسوا أهلاً للإفتاء – بجواز الكذب والغش واستحلال الأموال بل القيام بأعمال تخريبية جرّت عليهم وعلى غيرهم نكبات وويلات ، وأدارت عجلة الحوار إلى الوراء وهدمت كثيراً من جسور الثقة التي بناها المعتدلون ، وكانوا أبعد الناس عن الفقه والفهم – لا فقه الواقع ولا حكم

الشارع ـ وخاصة ما يتعلق بفقه الموازنات الشرعية ، الموازنة بين المصالح والمصالـح ، و بين المصالح والمفاسد ، و بين المفاسد والمفاسد .

غياب فقه الموازنات والأولويات :

في سياسة التوازن بين المصالح والمفاسد نجد أن شريعة الإسلام تقدم درء المفسدة على جلب المصلحة ، ولنا في سيرة رسول الله ﷺ أمثلة كثيرة توضح سياسة النبي ﷺ في تركه لبعض من المصالح التي يترتب على تحقيقها فتح باب شر وجلب مفاسد ، من ذلك :

* لقد ترك النبي ﷺ تحطيم الأصنام في العهد المكي لأن تحطيمها لن يأتي بفائدة ولن يصرفهم عن عبادتها ، بل سيجعلهم يثورون من أجلها أكثر وقد ينتقمون من أصحابه ويُعملون فيهم القتل والتعذيب ثم يعيدونها أكبر وأكثر من ذي قبـل ، ولذا كان همه كله ﷺ هو تصحيح العقائد والأفكار لا تحطيم الأحجار ، فلما تم فتح مكة وعلت كلمة الإسلام وأذعنوا له بالخضوع والاستسلام عند ذاك حطموها بأيديهم بعد أن لفظوها من قلوبهم.
* ترك بناء الكعبة كما هو على هيأته وحاله مع أنها لم تُبْنَ كلها على قواعد إبراهيم خوفاً من فتنة أصحابه بهدمها ولو من أجل إعادة بنائها ، فقد كانت عندهم من القداسة بمكان عظيم فلا يجرؤ أحد على أن يقلع منها حجراً واحداً ولو من أجل إعادة البناء ، وقد صرح بهذا النبيﷺ لعائشة عندما قال لها : « لولا أن قومك حديثو عهد بكفر لهدمت الكعبة وبنيتها على قواعد إبراهيم » رواه مسلم
* ترك قتال المنافقين مع كونهم أشد خطراً على الإسلام من الكفار وذلك خشية اتهامه من قِبَل المشركين بأنه يقتل أصحابه ـ أي المنافقين- فتكون فتنة وصداً للناس عن الدين.
* كتمـان العلم الشرعي عن بعض من لا يفهمه على وجهه الصحيح فيكون فتنة له ، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : كنت رديف النبي ﷺ على حمارفقال

لي: « يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله ؟ قلت : الله ورسوله أعلم، قال : حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً . قلت : يا رسول الله أفلا أبشر الناس ؟ قال : لا تبشرهم فيتكلوا » البخاري ومسلم

بين الانحسار والانكسار :

ضاعت الوسطية والاعتدال بين فريق آثر التقوقع والانحسار فكفر بالعلم والحضارة التي جاءت من قِبَل الغربيين وإن لم يكن قد كفر بها قولاً فقد كفر بها فعلاً، واكتفى الكثير من هؤلاء بالمهن الوضيعة ورضي منهم الجهـلُ بالولاء وإظهارهم للعلم وجه الجفاء ، وآخرون راحوا تحت وطأة سهام الإعلام ونظرة العنصرية والحقد في بعض من الأحوال يتنازلون عن قيمهم وثوابتهم ويخلعون ثوب أصالتهم فارتدوا بزة غير التي ألفوها ، فما تمسكوا بخير ولا رضي عنهم الغير.

نعم هناك الكثير الذين فهموا الإسلام بسعة أخلاقه وشمول رحمته فأظهروا خلقاً عظيماً وسلوكاً حميداً ، أذكر في هذا المقام عندما دُعيت لمدينة ـبامبلونا ـ شمال إسبانيا على حدود فرنسا لإلقاء محاضرة أخبرني أهل المسجد أنهم من عادتهم إذا كان يوم عيد الفطر وعيد الأضحى مدوا موائد الحلوى والعصائر أمام المسجد ابتهاجاً بالعيد ولكنهم قبل أن يبدءوا يدعون جيرانهم الأسبان لمشاركة المسلمين احتفالهم وتوزع الهدايا على جميع الأطفال مسلمين وغير مسلمين ، وحدث أن قررت البلدية غلق المسجد لوجود بعض المخالفات الإدارية تتعلق بالترخيص ، فما كان من الأهالي إلا أن ذهبوا إلى البلدية وناشدوهم عدم إغلاق المسجد قائلين لهم : ما رأينا من هؤلاء الشباب إلا الخير . فاستجابت البلدية لطلب الأهالي وتراجعت عن قرار إغلاق المسجد ، يا ليت مثل هذه الأخلاق تسود إذاً لعاش الناس في جنة ، ولزالت الأحقاد وانقلب العدو إلى صديق ودود ، وما أحسن قول الشاعر :

وإذا صاحبتَ قوماً أهل ود ... فكُنْ لهم كذي الرحم الشفيق

ولا تأخذ بزلّـة كل قـوم ... فتبقـى في الزمان بلا رفيـق

الخلط بين مكارم الأخلاق والمداهنة والنفاق :

لم يعد يُفرِّق كثير من الشباب وخاصة من سلك طريق الالتزام بين اللين والمداهنة حيث يتسرع البعض منهم باتهام أهل الحكمة من الدعاة والعلماء بالمداهنة والنفاق ، ولذا لابد من بيان الفارق بينهما حتى لا يتسارع البعض بسوء الظن والاتهام.

إن المداهنة معناها أن تُظهر رضاك بالمنكر مع علمك بأنه منكر موافقة منك لمن جاء به ، هذا الذي نهانا الله عنه ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ [الواقعة٨١] ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم٩] أما اللين فهو إظهار الحق وبيانه بأحسن الأساليب ، إن كثيراً من آي القرآن ومن أحاديث النبي ﷺ تأمر وتحث على الرفق واللين حتى مع أعتى المخالفين وأكابر المجرمين ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه٤٣، ٤٤]

فمن ظن بنفسه خيراً فليس أفضل من موسى وهارون وإن ظن بمن يدعوه شراً فليس أسوأ من فرعون ، وفي مجال الحوار يأمرنا القرآن باختيار أحسن الأساليب في محاورة أهل الكتاب ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت٤٦] وهذا حديث رسول الله ﷺ « ما دخل اللين في شيء إلا زانه ، وما نُزع من شيء إلا شانه » أبعد هذا من رأي أو يتمحل جاهل بقول.

عدم كفاءة الدعاة :

يقال الهدية تدل على المهدي والرسول على المرسل والكتاب على الكاتب وكان يُقال : رسول الرجل مكان رأيه وكتابه مكان عقله ، وصف القاضي عياض عقل رسول الله ﷺ وآثاره في الدعوة الإسلامية فقال : « إنما وفور عقله وذكاء لبه وقوة حواسه وفصاحة لسانه واعتدال حركاته وحسن شمائله »

لقد ساعد كثير من الأئمة والدعاة بطريقة سلبية موقف أهل التشدد والغلو عندما خشي البعض منهم أن يتحدث عن سماحة الإسلام خوفاً من انتقادهم من

قِبَل بعض الشباب المتحمسين الذين قادتهم العواطف والأشجان فآثروا السلامة والانعزال وكتموا كثيراً من النصوص الشرعية حتى لا يُتهموا بالتزلف أو التملق.

أذكر في إحدى خطب الجمعة بالمسجد الجامع بمدريد عندما ذكرت حديثاً يبين عظمة الإسلام وكيف أنه ربى أتباعه لا سيما أصحاب الرسول ﷺ على قول الحق وشهادة الصدق والإقرار للمخالفين بالفضل فقلت لهم لو أن واحداً من الدعاة ذكر ذلك اليوم لاتهم بالعمالة والخيانة والتملق ومحاولة التسلق ، ولكنه قديماً قاله واحد من أجِلَّة أصحاب النبي ﷺ وسوف أذكر الحديث لما فيه من معان وحِكَم ينبغي أن نربي عليها أبناءنا ودعاتنا ، روى الإمام مسلم في صحيحه قال المستورد القرشي عند عمرو بن العاص : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تقوم الساعة والروم أكثر الناس » فقال له عمرو : أبصر ما تقول قال : أقول ما سمعت من رسول اللهﷺ قال : لئن قلت ذلك إن فيهم خصالاً أربعاً : إنهم لأحلم الناس عند فتنة ، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة ، وأوشكهم كرَّة بعد فرة ، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف ، وخامسة حسنة جميلة وأمنعهم من ظلم الملوك .

الجهل بمداخل النفوس :

بين العقل والقلب تتحدد ملامح الشخصية الإنسانية ويتكون السلوك ، وهما ككفتي الميزان بهما يزن الإنسان ويضبط ويقيس بين ما يضره وما ينفعه بين ما يقدم عليه وما يحجم عنه ، فهناك من الشخصيات من لا يُدخَل عليه إلا من قلبه وعاطفته إلا إذا ضُرِب على أوتار قلبه ومُسح بيد الحنان والعطف على صدره ، ومنهم من لا يستفز إرادته ويستنهض عزيمته إلا زناد الفكر وملكات العقل ، وإذا نظرنا في منهج الدعوة من خلال الأسلوب القرآني نجد دائماً أن القرآن في خطابه الدعوي يوجه المسلم إلى سلوك هاتين السبيلين .

فتأتي الآيات القرآنية المخاطبة للعقل والداعية إلى التفكر والتبصر تارة بضرب الأمثال وأخرى بالنظر والاستدلال ، ولذا نجد ختام كثير من الآيات :

أفلاتعقلون ، أفلا تتفكرون ، أفلا يبصرون ، أفلا يتدبرون . وتارة أخرى تأتي بالمدح والثناء على المؤمنين بأنهم أهل العقول السليمة وذم المعرضين الذين حرموا أنفسهم من التمتع باستخدام نعمة العقل حيث عاشوا في الدنيا كالأنعام ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان٤٤] فيقولون في ذلك اليوم ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك١٠] وأما الباب الآخر وهو باب القلب فهو الذي يفتح لك بلا استئذان وإنما إذنك أخلاقك وطَرْقك عليه حسن معاملاتك .

ومن هنا وجدنا القرآن الكريم كثيراً ما يتوجه إلى العواطف والشعور تارة بالتعريف بالله رب العالمين بصفات رحمته وكرمه ونعمه الظاهرة والباطنة ، وأخرى بذكر الحديث عن النعم ذاتها والتذكير بها وتارة بالترغيب والترهيب أو بالتطميع في حسن الثواب وعظيم الجزاء ولذا يأتي الحديث عن الجنة وما أعد الله فيها ، فإذا ما كان إعراض ونفور فلا حس ولا شعور يأتي القرآن مبيناً السبب حتى لا تستولي عليك غرابة أو يحيرك عجب ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق٣٧] ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة٧٤] .

بدون هذين الأمرين معاً ، فجهد ضائع ، وقول بلا سامع.

ومن هنا يتأكد الحديث عن الأخلاق تربية وسلوكاً لكل مسلم وفقهاً وعلماً لبعض من سلك طريق الالتزام فساء فهمه بظن يقوده وجهل يسوقه فيعتقد أن الجفاء وعدم السلام وعبوس الوجه وأذية غير المسلم جائز بل قد يصل عند أحدهم إلى المندوب أو الواجب ، فيا له من حجر عثرة ، ويا لها من شجرة يابسة فلا ورق ولا زهر ، فما تزينت لنظر وما جادت بثمر.

وهنا سؤال يطرح نفسه ، هل يستطيع الإنسان أن يتغير؟ والجواب ، نعم إذا أراد ، لأن الأخلاق فطرية ومكتسبة .

فطرية لأن الإنسان في أصل تكوينه ومبتدأ خلقه خُلق سليماً من كل عيب بريئاً من كل ذنب ، لا يرث عيباً ولا يحمل عن غيره ذنباً محباً للخير مبغضاً للشر ﴿فِطْرَتَ

﴿ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم٣٠] وفي الحديث « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » متفق عليه وفي حديث آخر « خلقت عبادي حنفاء فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم » وفي صحيح مسلم عندما قال النبيﷺ لأشج عبد القيس « إن فيك صفتين يحبهما الله الحلم والأناة . فقال : يا رسول الله شيء كان فيَّ أم تخلقتُ بهما؟ فأخبره ﷺ : بل جُبِلت عليهما » .

أما الأخلاق المكتسبة فكل شرائع الأنبياء جاءت بها آمرة بالفضائل ناهية عن الرذائل ولست مبالغاً إذا قلت بأن القرآن الكريم كله أخلاق ، أخلاق مع الله وأخلاق مع خَلق الله ولم أقل أخلاق مع عباد الله لأن الأخلاق تسع الكون كله بجميع عوالمه مع الإنس مع الجن مع الملائكة مع الطير والحيوان والجماد .

وقد جمع النبي ﷺ رسالته في قوله : « إنما بُعِثت لأتمم مكارم الأخلاق » رواه مالك في الموطأ.

أمثلة من عوائق التفاهم

افتراءات الإعلام على الإسلام :

من ذلك ما صدر في يوم السبت الموافق الثامن من يوليو لعام ٢٠٠٠ م - ٦ ربيع الآخر ١٤٢١ هجرية وفي ملحق خاص بجريدة معروفة مشهورة بعنوان « في إطار رسالة التاريخ » وفي خمس عشرة صفحة كاملة -وهي من أكثر الجرائد الإسبانية انتشاراً وتوزيعاً -جاء الحديث عن الإسلام ونبيه محمد بصورة آلمت كل مسلم وأحزنت كل مؤمن وأزعجت كل مثقف واع بحقائق التاريخ ، أما لماذا؟

فأولاً : لأنها تناولت نبياً كريماً ورسولاً عظيماً هو أحب إلى قلب كل مؤمن من والده وولده والناس أجمعين ، ولسان كل واحد منهم يقول : يا رسول الله نفسي لنفسك الفداء وعِرْضي دون عرضك وقاء.

ثانياً : لأنها مقالات كاذبة ومشوهة ومزورة لم تلتزم الحق ولا الصدق في عرضها للتاريخ الإسلامي ولا في عرضها لحقائق الإسلام وكان العداء والحقد واضحاً في أسلوب الكُتاب .

ثالثاً : خطورة المقال حيث نُشِر في إطار التوثيق التاريخي أي يمكن الرجوع إليه فيما بعد كمصدر تاريخي مما يعني تجهيل المثقف الإسباني تاريخياً.

رابعاً : إن هذا الأسلوب غريب على الصحافة الإسبانية وعلى طبيعة العلاقة الطيبة التي تربط المسلمين بالإسبان في إسبانيا وما يجده المسلمون من حسن معاملة على المستويين الشعبي والرسمي .

وقبل الدخول في الرد العلمي على أصحاب الافتراءات نود التذكير بأن أكبر عائق في طريق الحقيقة يكمن في أمرين : جهل الإنسان بالحقيقة وعدم علمه بها بما ترسب في نفسه من قناعات سابقة أسرته بتأثيرها وأقعدته عن السعي لمعرفتها ، فإذا ما أميط لثام الجهل وأبصر الإنسان نور الحقيقة فإنه سرعان ما يتحول إلى واحد من

المؤمنين بها والمناصرين لها المدافعين عن قضاياها شريطة ألا يحجبه عائق آخر وهو الأهم عائق الموروثات بكل أنواعها ، الموروثات العقدية والثقافية والعادات والتقاليد أوالأمراض النفسية ومن أخطرها الحسد والحقد الذي يورث المكابرة عن قبول الحق والاعتراف به وهذا السبب هو الأعم الأغلب والأسبق في تاريخ الصراع بين الحق والباطل عندما رفض إبليس السجود لآدم كبراً وحسداً وحقداً ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة٣٤] .

والمتتبع لتاريخ الدعوة في القرآن الكريم يجد دائماً أن إرث العادات والتقاليد كان سبب الكفر والتكذيب ﴿ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ [لقمان٢١] ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ [البقرة ١٧٠] ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف ٢٣] ﴿أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ [هود٦٢] ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ [الأعراف٢٨] كما أن الحسد والحقد كان سبباً آخر ليس لرفض الحق فقط بل لمحاربته ومعاداة أهله وبذل كل الوسائل لإبعادهم عنه ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ [البقرة١٠٩] وفي سبيل الوصول إلى هذه الغاية إضلال أهل الحق ﴿ وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [آل عمران٦٩] اتخذوا سبيلاً كانت دليلاً على خواء عقولهم وخبث نياتهم ، فلما لم يكن عندهم من الأدلة والبراهين ما يصمدون به عند المحاورة لم يكن أمامهم بُدٌّ من الخداع والحيل والمراوغة والمناورة فقالوا : ﴿ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [آل عمران ٧٢] .

فتغيير العقائد والأفكار علاجه بالنظر والحوار أما علاج أمراض القلوب فجهد ليس باليسير حيث إن الداء دفين قد تمكن من ملك الجوارح-القلب- وكلها له تبع ، قد أسر الأعضاء وقادها ، فبأمره وبنهيه تنقاد ولو وضح أنه غير سبيل الرشاد ، ومن يملك من البشر أن يغير قلباً وقد قال تعالى : ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأنفال٦٣] وفي الحديث « ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الله يقلبه كيف يشاء » .

ومن هنا فإن الداعية لا ينفك عن دعوته حتى ولو صُمَّتْ الآذان وعميت الأبصار وتحجرت القلوب إذ إنه مطالب بأمانة التبليغ ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية٢١] ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى٤٨] ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف ١٦٤].

وتقديم المعذرة على التقوى راجع إلى عدة أسباب :

أولاً : أن البداءة بدفع الضرر الناتج بعدم النهي عن المنكر مُقدَّم على دفعه عن الغير ، والإنسان مأمور بصلاح نفسه أولاً ثم بغيره ثانياً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم ٦].

ثانياً : أن يكون قد غلب على ظن الناصحين عدم الإجابة لنصحهم فقدموا أغلب الظنين رجاء في التحقيق ، ولذا كان لا بد من الإبلاغ ولو كان غير مستساغ.

وأبدأ الآن بذكر عناوين هذه المقالات المسمومة الحاقدة :

* محمد نصَّب نفسه فوق عيسى وموسى .
* تجاوز عدد الزوجات المسموح له بعد وفاة السيدة خديجة زوجته الأولى وأكثر الزوجات حباً لقلبه ، بدأ محمد في جمع السيدات لدرجة أنه تجاوز أربعة المسموح بهن للمسلمين ولكن تصريحاً خاصاً له مكَّنه من ذلك.
* على ما يبدو أن تعدد الزوجات جلب للنبي متعاً كثيرة بيد أن الغيرة كانت مصدراً للضيق.
* السورة ٣٣ منحت الرسول ترخيصاً بالزواج بكل من أراد .
* عائشة أُبعِدت عن لعبها دون معرفة السبب ، ذهبت إلى داره أجلسها على ركبتيه ثم فض بكارتها.